الباب الخامس والعشرون: في الشفقة على خلق الله تعالى، والرحمة بهم، وفضل الشجاعة، وإصلاح ذات البين

وفيه فصلان

الفصل الأول: في الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم

قال الله تعالى: ﴿لقد جاءكُم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوفٌ رحيم﴾[1] وصف الله نفس لعباده فقال عز وجل: ﴿إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾[2] وقال الله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين * الرحمٰن الرحيم﴾[3] قال المفسرون: الرحمٰن اسم رقيق يدل على العطف والرقة واللطف والكرم والمنة والحلم على الخلق، والرحيم مثله. وقيل: يقال رحمٰن الدنيا، ورحيم الآخرة. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيدِهِ لا يَضَعُ الله الرحمة إلا على رحيمٍ قلنا: يا رسول الله، كلّنا رحيم. قال: ليس لرحيم الذي يرحم نفسه وأهله خاصة، ولكن الرحيم الذي يرحم المسلمين». رواه أبو يعلي، والطبراني. وعن جابر بن عبد اللّه رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «من لا يرحم لا يُرحم، ومن لا يغفر لا يُغفر له» وعنه ﷺ قال: «ارحموا تُرحموا واغْفروا يُغفر لكم». وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل: «إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا خلقي». رواه أبو محمد بن عدي في كتب الكامل.

وروينا، من طريق الطبراني، عن الشعبي، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ لمؤمنين في تراحمهم وتواددهم وتواصلهم كمَثَلِ الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» قال لطبراني: إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فسألته عن هذا الحديث فقال النبي ﷺ وأشار بيده: صحيح صحيح صحيح ثلاثاً. وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ مسح على رأس يتيم، كان له بكل شعرة تمر عليه يده نور يوم القيامة». ودخل عامل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فوجده مستلقياً على ظهره، وصبيانه يلعبون على بطنه فأنكر ذلك عليه. فقال له عمر: كيف أنت مع أهلك؟ قال: إذا دخلت سكت الناطق. فقال له: اعتزل فإنك لا ترفق بأهلك وولدك، فكيف ترفق بأمة محمد ﷺ؟ وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. أن رسول الله ﷺ قال: «إن أبدال[4] أمتي لن يدخلوا الجنة بالأعمال، ولكن يدخلونها برحمة الله وسخاوة النفس، وسلامة الصدور والرحمة لجميع المسلمين.

---

(١) سورة: التوبة، الآية: ١٢٨.
(٢) سورة: البقرة، الآية: ١٤٣.
(٣) سورة: الفاتحة، الآيتان: ٢ ـ ٣.
(٤) أبدال: قوم من الصالحين لا تخلو الأرض منهم كلما مات واحداً بدله الله.

الفصل الثاني: في الشفاعة وإصلاح ذات البين

قال الله تعالى: ﴿من يشفَعْ شفاعةً حسنةً يكُنْ له نصيبٌ منها ومن يشفَعْ شفاعة سيئة يكُنْ له كفلٌ منها وكان الله على كلِّ شيءٍ مقيتاً﴾[١] وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يسأل العبد عن جاهه، كما يسأله عن عمره، فيقول له: جعلت لك جاهاً، فهل نصرت به مظلوماً أو قمعت به ظالماً، أو غثت به مكروباً؟» وقال ﷺ: «أفضل الصدقة أن تعين بجاهك مَنْ لا جاه له». وعن أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جاءني طالب حاجة فاشفعوا له لكي تؤجروا، يقضي الله تعالى على لسان نبيه ما شاء». وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة صدقة اللسان، قيل: يا رسول الله وما صدقة اللسان؟ قال: الشفاعة تفكُّ بها الأسير، وتحقن بها الدماء، وتجرّ بها المعروف إلى أخيك، وتدفع عنه بها كريهة». رواه الطبراني في المكارم. وقال علي رضي الله عنه: الشفيع جناح الطالب.

وقال رجل لبعض الولاة: إن الناس يتوسلون إليك بغيرك، فينالون معروفك ويشكرون غيرك، وأنا أتوسل إليك بك، ليكون شكري لك لا لغيرك. وقيل: كان المنصور معجباً بمحادثة محمد بن جعفر بن عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهم، وكان الناس لعظم قدره يفزعون إليه في الشفاعات فثقل ذلك على المنصور، فحجبه مدة، ثم لم يصبر عنه فأمر الربيع أن يكلمه في ذلك، فكلمه وقال: أعف يا أمير المؤمنين، لا تثقل عليه في الشفاعات فقبل ذلك منه. فلما توجه إلى الباب اعترضه قوم من قريش معهم رقاع فسألوه إيصالها إلى المنصور فقص عليهم القصة، فأبوا إلا أن يأخذها. فقال: اقذفوها في كمي، ثم دخل عليه وهو في الخضراء مشرف على مدينة السلام وما حولها من البساتين، فقال له: أما ترى إلى حسنها يا أبا عبد اللَّه. فقال له: يا أمير المؤمنين، بارك الله لك فيما آتاك وهنّاك بإتمام نعمته عليك فيما أعطاك، فما بنت العرب في دولة الإسلام ولا العجم في سالف الأيام، أحصن ولا أحسن من مدينتك، ولكن سمجتها[٢] في عيني خصلة، قال: وما هي؟ قال: ليس لي فيها ضيعة، فتبسم. وقال: قد حسنتها في عينك بثلاث ضياع قد اقطعتكها. فقال: أنت والله يا أمير المؤمنين شريف الموارد، كريم المصادر، فجعل الله تعالى باقي عمرك أكثر من ماضيه. ثم أقام معه يومه ذلك، فلما نهض ليقوم بدت الرقاع من كمه فجعل يردهن، ويقول: ارجعن خائبات خاسرات. فضحك المنصور، وقال: بحقي عليك ألا أخبرتني وأعلمتني بخبر هذه الرقاع فأعلمه. وقال: ما أتيت يا ابن معلم الخير إلا كريماً، وتمثل بقول عبد اللَّه بن معاوية بن عبد اللَّه بن جعفر:

لسنا وإن احسابُنا كرمَتْ ... يوماً على الأحساب نتَّكلُ
نَبْني كما كانَتْ أوائلنا ... تبني ونفعلُ مثل ما فعلُوا

ثم تصفَّح الرقاع وقضى حوائجهم عن آخرها. قال محمد: فخرجت من عنده وقد ربحت وأربحت. وقال المبرد: أتاني رجل لأشفع له في حاجة فأنشدني لنفسه:

إني قصَدْتُك لا أدلي بمعرفةٍ ... ولا بقربٍ ولكن قد فَشَتْ نعمُكْ

---

(١) سورة: النساء، الآية: ٨٥.

(٢) سمجتها: جعلها تبدو ثقيلة ممجوجة.

فبتُّ حيرانَ مكروباً يؤرقني ذلُّ الغريب، ويغشيني الكرى كرمُكْ
ما زلت أنكبُّ، حتى زلزلَتْ قدمي فَاحْتَلْ لتثبيتها لا زلزلَتْ قدمُكْ
فلو هممت بغير العرف ما علقَتْ بـه يداك ولا انقادَتْ لـه شيمُكْ

قال: فشفعت له وأنلته من الإحسان ما قدرت عليه. وكتب رجل إلى يحيى بن خالد رقعة فيها هذا البيت:

شفيعي إليك الله لا شيءَ غيره وليس إلى ردِّ الشفيع سبيلُ

فأمره بلزوم الدهليز، فكان يعطيه كل يوم عند الصباح ألف درهم، فلما استوفى في ثلاثين ألفاً ذهب الرجل. فقال يحيى: والله لو أقام إلى آخر عمره ما قطعتها عنه. وقال آخر:

وقد جئتكُم بالمصطفى متشفِّعاً وما خاب مَنْ بالمصطفى يتشفَّعُ
إلى بابِ مولانا رفعتُ ظلامتي عسى الهمُّ عني والمصائبُ تُرفعُ

وقال آخر:

تشفَّعْ بالنبيِّ فكلُّ عبدٍ يُجار إذا تشفَّع بالنبِي
ولا تجزَعْ إذا ضاقَتْ أمورٌ فكَم لله من لطفٍ خفي

وروي أن جبريل عليه السلام قال: يا محمد لو كانت عبادتنا لله تعالى على وجه الأرض لعملنا ثلاث خصال: سقي الماء للمسلمين، وإعانة أصحاب العيال، وسترا لذنوب على المسلمين إذا اذنبوا.

اللهم استر ذنوبنا، واقض عنّا تبعاتنا وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.